الباب الثالث

صفات الأسلوب

للأسلوب أوصاف شتى يمكن معرفتها بالنظرة السريعة، كالأسلوب الموجز أو المساوي أو السهل أو الغامض أو التصويري إلى غير ذلك من السمات الواضحة في العبارات، والتي يمكن بها تعدد الأساليب إلى أشكال كثيرة، ولكن الذي يذكر هنا إنما هو أعم الصفات من جهة، وأعمقها من جهة أخرى، لتناولها جميع الأساليب، ولصلتها بنفس الأديب، ومعارفه، وعواطفه، وذوقه، وأخيرا بعباراته. لذلك كان من الأصح أن تسمى عناصر أو أركانا، ولعلها ترجع جميعا إلى أصل واحد هو صدق التعبير؛ فالإخلاص في تصوير ما في النفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة، يجعل الأسلوب مثاليا متى توافرت للأديب هذه الوسائل البيانية التي ترد عليك في الفضول الآتية. وبذلك يتحقق ما كررناه كثيرا فيما مضى ويصبح الأسلوب مرآة العقل، والخلق، والمزاج؛ وطرق التفكير والتخيل، سواء كانت تلك قوية أم ضعيفة، مستقيمة أم مضطربة، جميلة أم قبيحة، لأن مصدر ذلك كله إنما هو نفس الكاتب؛ فمنها تنشأ هذه الصفات، وإليها ترد.

ويمكن إرجاع هذه الصفات إلى ثلاثة قياسا على الغايات التي يقصد إليها المنشئون:

أولا- الوضوح Clearness لقصد الإفهام[١]

ثانيا- القوة Force لقصد التأثير.

ثالثا- الجمال Beauty الإمتاع (أو السرور).

وسنتناول كل صفة بشيء من التفصيل فيما يلي:-

١- راجع Gen: p 27

الفصل الأول

وضوح الأسلوب

أوّل واجب على البليغ أن يكون واضحًا مفهومًا يرمي إلى إفادة قرائه ورفع مستواهم الثقافي، ولا يستطيع ذلك بالوقوف عند تزويدهم بالمعارف جافة ثقيلة، بل يحسن به أن يكسب معارفه حياة وروعة شائقة بما يبث فيها من عواطف وأخيلة ملائمة كما قيل من قبل. والمصدر الأول للوضوح هو عقل الأديب، فيجب على الكاتب أن يكون فاهمًا ما يريد أداء، فهمًا دقيقًا جليًا، ثم يحرص على أدائه كما هو، ولذلك أثره البعيد في قيمة الأسلوب؛ لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء. وبعد ذلك يأتي التعبير اللغوي الذي يتطلب من المنشئ ثروة لغوية وقدرة على التصرف في التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره، فلا يرضى عن كلمة أو جملة تبعث الإبهام أو الاشتراك، ولا يشعر الناس بأن عبارته في حاجة إلى أن تفهم.

ولن يجوز في فن البلاغة هذا القانون الذي ارتجله أبو تمام حين قال: ولم لا يُفْهم ما يقال؟ جوابا لمن قال له: لم لا تقول ما يفهم؟ لأن البلاغة قائمة على العناية بالقراء والسامعين، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإذا بدا الأسلوب بعد ذلك غامضا توجه الطعن إلى منشئته، ورمى إمّا بعدم فهمه ما يقول وإما بعجزه عن التعبير عما يفهم.

نعم قد تكون الفكرة في ذاتها غامضة لأنها لما يتم بحثها، فعليه عرضها كما هي بأحدث أوضاعها كما ترى ذلك في تاريخ العلوم والفلسفة، وقد يكون القراء أنفسهم دون مستوى الأديب أو من طراز آخر غير ما يكتب فيه، فعليه – ليكون البليغ التام – أن يكتب لهم باللغة التي يفهمونها تاركا التحرج أو الاعتزال[1]. وهاتان الخطوتان اللازمتان لتحقيق الوضوح الأسلوبي تستلزمان أمرين:

أحدهما متصل بالأفكار نفسها وهو الدقة.

والثاني متصل بالقارئ وهو الجلاء.

ولكن كيف يتحققان؟

▪ أولاً : الدقة أو وضوح الفكرة

فيجب أن تؤدي كما هي ممتازة من سواها، ظاهرة الخواص والمعالم سواء أكانت قريبة سهلة كقول الطغرائي:

ومن يستعن بالصبر نال مراده ** ولو بعد حين؛ إنه خير مسعد

وقول بعضهم: "عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك"

أم كانت لطيفة دقيقة مخترعة تلفت النظر وتحتاج إلى أناة كقول أبي تمام:

وإذا آمرو مدح امرأ لنواله ** وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بُعد المستقى ** عند الورود لما أطال رَشَاءَه

١- البيان والتبيين جـ١ ص١٠٥

وقول بعضهم لأحد الملوك: "أخلاقك تجعل العدو صديقا، وأحكامك تجعل الصديق عدوًا".

ويلاحظ أن هذه الدقة تتعارض مع البساطة؛ فإذا كانت الكلمات المألوفة تستطيع أداء الأفكار العادية، فإن المعاني العميقة القائمة على التحليل الدقيق، والملاحظة البعيدة، لا بد لها من ألفاظ وصور أخرى تلائمهما ولو كانت غير عادية، كما رأيت في وصف الأسد قبلا، وكقول ابن المعتز: "سافر فلان في جيوش عليهم أردية السيوف، وأقمصة الحديد، وكأن رماحهم قرون الوعول، وكأن دروعهم زبد السيول، على خيل تأكل الأرض بحوافرها، وتمد بالنقع سُرادقها".

يقوم وضوح الفكرة ودقتها على لغة الكاتب، وكلماته المفردة التي يؤثرها لأنها أدل من سواها على ما يريد ونذكر هنا بعض القوانين التي في تحقيق الدقة وتحديد الأفكار.

(١)اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معان، والتي تدل على الفكرة كاملة: وذلك يدعو إلى ملاحظة هذه الفروق الدقيقة بين ما تسمى المترادفات حتى لا يصير المعنى ذاهب المعالم. من ذلك، العاطفة والانفعال، والسقم والمرض والهضبة والجبن، والسهو والغفلة. وقد يسمى الاشتراك حتى ذهب الناس كل مذهب فيما يعنى، وذلك في قوله:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم ** يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فماذا كان يفعل؟ أيبكى أم يهيم على وجهه، أم يمنعهم المسير، أم يدفع إليهم شيئا يذكرونه به أم ماذا؟[١]. ومن يدرى فلعل في هذه الإبهام بلاغة أرادها جرير ولم يفطن لها النقاد. وعندي أن المراد: بهذا التركيب هو مجرد التهويل دون إرادة شيء بعينه، فهو يريد بذل آخر جهده في التحفي بأحبّته، وليس بلازم أن يفهم التعبير فهما حرفيا.

(٢) يحسن بالأديب الاستعانة بالعناصر الشارحة، أو المقيدة، أو المخيلة، كالنعت، والمضاف إليه، والحال، والتمييز، والاستثناء. فذلك من عوامل إيضاح المعاني وتحديدها، كقولك: شوقي شاعرا أحسن منه ناثرا، وليلة نابغية، ونهر النيل من أطول أنهار الدنيا، وقول ابن الرومي

كأن مواهبه في المحو ** ل آراؤه عند ضيق الحيل
فلو كان غيثا لهم البلاد ** ولو كان سيفا لكان الأجل
ولو كان يعطى على قدره ** لأغنى النفوس وأفنى الأمل

(٣) ومما يساعد في وضوح الفكرة استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة المعاني، إذ كانت مقابلة الأضداد مما يزيد في كل وبيان خواصه، وشرط ذلك عدم الغلو فيه، وإلا عاد صنعة بديعة تفسد الأسلوب كقولك: طول النهار من قصر الليل، لا نقض ولا إبرام، والورد والصدر، العقل في الحياة كدقة السفينة، والعاطفة شراعها، وكقول البحتري:

متى أرت الدنيا نباهة خامل ** فلا ترقب إلا خمول نبيه

١- راجع الصناعتين ص٣٢

(٤) البعد عن الغريب الوحشي، والعمد إلى لغة الناس وما يستطيعون إدراكه، وذلك يختلف باختلاف العصور وطبقات الناس. فلكل ألفاظ ومستوي أليق به. وعكس ذلك حيلولة بين المعنى والقراء أو السامعين. ولكل مقام مقال، ومن ذلك ما قاله رجل من أهل خراسان للخليفة المهدى[١]: "أطال الله بقاء أمير المؤمنين، إنا قوم نأينا عن العرب، وشغلتنا الحروب عن الخطب، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا وما فيه ومصلحتنا، فيكتفي منا باليسير عن الكثير، ويقتصر على ما في الضمير دون التفسير" وقال الشاعر:

حلال لليلى أن تروع فؤاده ** بهجر ومغفور لليلي ذنوبها

تطلع من نفسي ليلى نوازع ** عوارف أن اليأس منها نصيبها

وزالت زوال الشمس عن مستقرها ** فمن مخبري في أي أرض غروبها؟

وإذا أردت أمثلة للإعراب فارجع إلى الصناعتين.[٢]

(٥) ثم المصطلحات العلمية، والفنية، والاجتماعية، والتاريخية التي وضعت لمعان خاصة محدودة، لتكون بين الكتاب والقراء، علامات واضحة وروابط عقلية مشتركة، وقد ذكرنا ذلك في الكلام على أسلوب التاريخ.

والذي يخشى هو أن ينهمك البليغ في تحري الدقة فيعود الأسلوب بذلك جافا أشبه بالصكوك التجارية أو القانونية، خاليا من الروح الفنية تقرؤه محكما دقيقا ولكنك تشعر بعقمه وملاله.

١- الصناعتين ١٤٠

٢- الصناعتين ٢٦

وهذا ما لخصه ابن قتيبة[١] على قول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب الحر الكريم كنفسه ** والمرء يصلحه الجليس الصالح

فقال: "هو جيد المعنى والسبك وإن كان قليل الماء والرونق"، وعندي أن ذلك راجع إلى أن البيت قد استأثر به العقل دون العاطفة فذهبت روعته، وضاع جماله الأسلوبي.

▪ ثالثًا : الجلاء أو وضوح التركيب

بعد أن يتوافر للمكاتب دقة الفكرة ووضوحها، تكون خطوته الثانية مطابقة الأسلوب لإدراك القارئ، وهي تبدو في صور شتّى من الرقة والجزالة أو السهولة والصعوبة حسب المعاني التي تؤديها العبارات. على أنه لو كانت الأفكار عويصة وجب على البليغ أن يحقق من السهولة أبعد درجاتها، ويكسب تراكيبه صفة الشفافية، لتكون كالزجاج الأبيض الصافي، يحفظ الرسم، وينم عنه كما هو أو كأنه لا زجاج يحميه. والقانون الأساسي لتحقيق هذا الجلاء هو تحري البساطة صوغ العبارات ومجانبة التعقيد، مع الاحتفاظ بسموها وقوتها. وهذا القانون نفسه متصل بالتكوين المنطقي والنحوي للأسلوب، هذا التكوين الذي يسلك الكلمات والجمل والعبارات في نظام لفظي هو صورة لنظام عقلي، وتفكير منطقي مطرد. وهذه بعض القواعد التي تفيد في تكوين التراكيب الواضحة.

١- الشعر والشعراء ص٤ طبعة الخانجي

(١) لا بد للبليغ من ذوق نحوي شديد، يحسن التألف بين الكلمات لتدل على معنى دقيق معين، وتسلم من هذين العدوين اللذين يفسدان الكلام، اللبس حينما يدل التركيب على معنيين ممكنين أو أكثر كقول المتنبي:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا ** لمن بات في نعمائه يتقلب

فقد يكون معناه- بناء على عود ضمير نعمائه على "مَن" الثانية-أن أشد الظالمين ظلما من تقلب في نعمة إنسان ثم بات يحسده عليها، وقد يكون المعنى- بناء على عودة ضمير نعمائه على "من" الأولى-أن أشد الناس ظلما من أولى إنسانا نعمة ثم حسده على تمتّعه بها، فهو الواهب وهو الحاسد، والمعروف أن الشاعر لم يرد إلا معنى واحدا ولكنه يحترس من الثاني. ثم الغموض حينما لا يدل التركيب على معنى معين دلالة قاطعة كبيت جرير السابق عند النقاد السابقين.

ومن خير العبارات التي لوحظ فيها هذا التكوين النحوي السديد ما كتبه أخ إلى أخيه: "ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير هفوة، فأطمعني أولك في إخائك، وأيأسني آخرك من وفائك، فسبحان من لو شاء كشف إيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك في حالك فأقمنا على ائتلاف أو افترقنا على خلاف" وهذا المثال ينفعنا فيما يلي.

(٢) الوثوق من أن العناصر التركيبية التي يرتبط بعضها ببعض في المعنى كأصل وتابع أو معنى وضده- قد ركبت بنظام دقيق، وتأليف منسق بحيث لا يتعب القارئ في تبين هذه الصلات بين الأجزاء، فينصرف عن المعني ويجهد عقله في غير نفع، فإذا رجعت إلى المثال السابق وقرأت الجملة الأولى وحدها رأيت الكاتب بعد ما ذكر الفعل

والفاعل والمفعول، يقيد ذلك الأول، ثم يقابل ذلك في الجملة الثانية بتأليف هو كالأول تماما، ويسير بهذا النظام والتقسيم حتى ينتهي إلى غايته، فنجا من التعقيد.

(٣) بعد ذلك تأتى مراعاة الجمل معا وما يكون بينها من فصل أو وصل، وما يربطها من حروف العلة، أو الحال، أو الاستثناء، بحيث لا يترك فواصل دون داع، ولا يغفل حرف وصل حيث يجب ذكره، ولا توجد فكرة دون التمهيد لها.

وهنا يتراءى الوضوح التام للأسلوب جملة، وإذ تجده سلسلة لفظية لسلسلة معنوية وتكون الأولى موسيقى عقلية هادئة عميقة كمثال النثر السابق، وكقول الشريف الرضى:

ولقد وقفت على ربوعهم ** وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب ** نضوي، ولج لعذلي الركب
وتلفتت عيني فمد خفيت ** عنى الطول تلفت القلب

فانظر إلى واو الحال أول الشطر الثاني، والفاء صدر البيت الثاني وحتى التي تفيد الغاية، ثم قوله: فمذ وجملة تلفت القلب. وتلك الروابط عنصر هام في اللغة إذا فقدتها عادت الأفكار والتراكيب مفككة بغير نظام.

(٤) ومما يتصل بذلك الإطناب، والمساواة، والإيجاز، ولسنا نريد هنا فرض أحد هذه الأوصاف على العبارة، لأن كل صفة منها تكون أوفى بالغرض في مقام دون سواها.

فالشعر تكفي فيه الكلمة الموجزة، واللمحة الخاطفة أحيانا لأن طبيعته الإيجاز والرمز، والأسلوب العلمي تلائمه المساواة، وكل من الإيجار والتطويل ضار فيه إذ كان مقدمان ونتائج دقيقة محدودة ويكون الإطناب أحيانا في الخطب والمقالات السياسية، والاجماعية، ولعل أسلوب الصحافة الآن أميل إلى ذلك.

الفصل الثاني

قوة الأسلوب

إذا كان الوضوح ألزم صفات الأسلوب وأولاها بالرعاية - لأنه يحقق الغاية الأساسية،وهي الإفهام- فإننا نلاحظ أن الفنون الأدبية التي يغلب فيها الوضوح هي النصوص القائمة على المعاني العقلية لقصد الثقافة كالقانون، والفلسفة، والجغرافيا.

ولكننا أحيانا لا نقتصر فيما نكتب على نشر الحقائق وإنما نعني كذلك - أو أكثر من ذلك - بإيقاظ العقول الخامدة وبعث الشعور والحماسة، وإثارة العواطف في نفوس الناس، وبذلك نهب للأفكار حياة أقوى من حياتها العقلية لتكون ممتعة مؤثرة، فهذه الحياة هي التي تسمى القوة.

نلاحظ إذًا أن القوة صفة نفسية، تنبع أول أمرها من نفس الأديب الذي يجب أن يكون نفسه متأثرا منفعلا إذا شاء من قرائه حماسة وانفعالا، وهي لذلك صفة العاطفة والإرادة والأخلاق قبل أن تكون صفة الأسلوب؛ فالكاتب الذي يدرك الحقائق بوضوح، ويعتقدها بصدق، ويحرص على إذاعتها، تجد في عبارته صدى ذلك، وهي قوة لا تكون بالتقليد والتصنع، وإنما هي من قوة الأخلاق وصدق العقيدة وصحة الفهم وبعد أغواره. وإذا كان الغرض من الوضوح هو الاقتصاد المباشر، في إجهاد مواهب القارئ؛ فإن الغرض من القوة الاقتصاد

غير المباشر بإيقاظ عقله، وعواطفه، وأخيلته، لتدرك المعاني بقوة، وتحظى بمتعة جديدة، إذ كانت قوة الأسلوب صدمة للعقل، ودعوة للنزال، والبحث عن مواطن الروعة والفائدة، وهناك قاعدتان لتحقيق القوة الأسلوبية، نذكرها فيما يلي:

- **أولاً : قوة الصورة**

ويراد بالصورة القوية ما نتجاوز بالعقل معناها الحرفي إلى معنى أو معان أخرى مجازية أو غيرها، وذلك يكون بالتمثيل، والكناية، والاستعارة من كل ما يفتح أمام القارئ آفاقا من التفكير أو التخييل، من ذلك قول بشار:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فيمكن أنه نفهم من هذا البيت معاني ثلاثا بهذا الترتيب:

أولها: هذا المعنى الحرفي الساذج، وهو أن يحتمل الإنسان شرب الماء على قذاه أحيانا لأنه لا يضمن صفاءه دائما.

ثانيها: احتمال الصديق على ما به من عيب، فلم يسلم من العيوب وهذا المعنى هو المناسب لأن بشارا كان يعاتب.

وثالثها: وهو الأخير، احتمال السقوط في الحياة وتحمل عنت الدهر، فالفوز المطلق غير محتوم.

على أن مثل هذه الصور الخيالية، والعبارات البيانية، تبين لنا كيف يتصور الأديب الأشياء ويتناولها بعقله وخياله، وتجعلنا نشعر بشعوره، ونتحد معه، ولو لحظات.

ونذكر هنا بعض الوسائل التي تحقق للبليغ قوة التعبير:

(١) من ذلك، ما ذكر قبلا، من استعمال الكلمات المألوفة، المحدودة المعنى، العربية؛ فذلك يفيد في وضوح الأفكار والصور، كما يفيد في قوتها واستقرارها في العقول. وليس ينفع هنا اللغظ المشترك، ولا الغامض، ولا الكلمات الأجنبية التي لم تشرب روح العربية لأنها إذا فقدت الإلف والوضوح فقدت القوة. ولقد حمل ذلك بعض كتابنا على استعمال الكلمات، والأمثال العامية بحجة أنها ذوق الشعب، وشعوره، وتدل على كل ما يحيط بالفكرة من أطياف.

(٢) استخدام الكلمات الوصفية التي تفيد في جمال الأسلوب وفي قوته معا، ويراد بالكلمات الوصفية، تلك التي تصور مشاهد أو حوادث تلفت النظر، وتروع الفؤاد، وتثير الإعجاب، دالة على ما في الموصوف من بهجة ممتعة، أو صوت مجلجل، أو إبداع عجيب، كما رأيت ذلك في فن الوصف، وكقول بديع الزمان في المقامة الأسدية:

"فإذا السبع في فروة الموت، وقد طلع من غابه، منتفخا في إهابه، كاشِرا عن أنيابه، بطرف قد مُلي صلَفًا، وأنف قد حشي أنفا، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب".

(٣) الاستعمال المجازى للكلمات، أو وصفها بنعوت غريبة تؤدى معنى المبالغة المقبولة والإيجاز الطريف، وتفتح للقارئ مجال التفكير والتخييل؛ ومن هذا الأخير قولهم: ليلة نابغية، ورأس كليب، وثالثة الأثافي، والمستحيلات الثلاث.

ومن المجاز قول ابن خفاجة الأندلسي يصف نهرا:

متعـطف مثل السوار كأنـــه ** والزهر يكنفه، مجر سمـــاء
وغَدَتْ تخف به الغصون كأنهـا ** هدب يحف بمقـلة زرقـــاء
والريح تعبث بالغصون وقد جري ** ذهب الأصيل على لجين الماء

(٤) التحاشي عن الكلمات الضعيفة والحشو الفارغ، والعناصر الثانوية في العبارات، ثم الاكتفاء بأركان الكلام، حتى يترك لها المجـال لتبعـث آثارها دون عائق. وأكثر مـا يبـدو ذلـك فـي الخطابـة، والجـدل، والمناظرة، وفي الشعر والنثر الأدنى كما سبق،

ومن هذا الضرب الأمثال والحكم، مثل: رب عجلة تهب ريثا – حسـبك من نشر سماعه – ولكم في القصاص حياة.

▪ ثانياً : قوة التركيب

يستطيع المتكلم أن يدل على الكلمات ذات المعاني الهامة بغيرهـا فـي النطق وتكرارها، ولكن الكلام المكتوب لا أثر فيه للصوت، لذلك يجـب أن يعرف القارئ أهمية هذه المعاني بوسيلة أخـرى ليسـت صـوتية، وهي وضع كلماتها حيث تكتسب عناية وانتباها.

ويتم هذا بالوسائل الآتية.

(١) تقديم الكلمة أو تأخيرها بالنسبة إلى موضعها الطبيعي دلالة علـى القصر أو التفخيم، أو حسن الذوق واللياقة أو الأهمية مطلقـا، مثـل: إياك نستعين– على الأخلاق خطوا الملك وابنوا – لا إله إلا الله.

هنا محا ذاك العزاء المُقدَّما ** فما عبس المحزون حتى تبسما

(٢) من أسباب القوة الطباق البديعي الذي مر ذكره في الوضوح؛ لأن المقابلة نوع من التحدي بين المعاني والمنافسة في الظهور. وهذه قوة للمعاني، مثل: فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا – إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم.

لئن ساءني أن نلتَني بِمَسَاءةٍ ** لقد سرَّني أنِّي خطرت ببالك

(٣) لما كانت القوة تستلزم السرعة في أكثر الأحيان، كان الإيجاز لازما في العبارة عامة، وفي التراكيب خاصة، لذلك تجد تراكيب الخطابة مقتضبة سريعة كأنها أوامر ونذر صارمة، كذلك الحوار التمثيلي، والجدل الأدبي لما تتطلب من سرعة الأداء.

وقد يظهر التناقض بين القوة والوضوح، إذا كانت نلجأ إلي الإيجاز والاكتفاء بالعناصر الهامة في حين أنه محتاج إلى هذه العناصر الثانوية لبسط الأفكار وإنارة جوانبها. ومعنى هذا أن تحاول صفة لحياة على حطام الأخرى. وللخلاص من ذلك يترك الأمر للأديب فيؤثر أحد الجانبين تبعا لمقتضى الحال. ومع ذلك فإن مهرة الكتاب والخطباء يجمعون في أساليبهم بين الصفتين الإطناب في العرض لإيضاح الأفكار والتدليل عليها، ثم الإيجاز أخيرا لتلخيصها وقوة تأثيرها.

الفصل الثالث

جمال الأسلوب

الجمال صفة لازمة للأساليب الأدبية لا غنى لها عنه مادام الأديب معنيا بإمتاع القراء واحترام أذواقهم، ومن السهل معرفة ذلك فقد تقرأ نصا أدبيا واضح الأفكار، قوى العاطفة، ولكنك تحس مع هذا أنها نابية عن الذوق، فجة العمارة، لا تمتزج بالنفس.

هذا النقص ناشئ في الغالب عن سقم التعبير، ودليل على خمود الشعور والذوق الأدبي، وهو سبب وحده يكفى للعناية بجمال الأسلوب وموسيقى العبارة لعلنا نستطيع إرضاء ذوق القارئ وخياله فوق عواطفه وعقله.

وهنا نلاحظ أن ليس من جمال الأسلوب في شيء هذه المحسنات البديعيّة والصورة الخيالية التي يصطنعها الكتاب عمدا، ظانين أنها حلى بديعة، أو مدارين بها فقرا عقليا ونقصا ذوقيا، والحق أنها تدخل الأساليب الأدبية حين تدعوها طبيعة المعاني لتقويتها أو إيضاحها، أو حين يلجأ إليها الخيال ليصوّر بها عاطفة صادقة وانفعالا قويا.

والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الأديب وذوقه، فالخيال المصور يدرك ما في المعاني من عمق وما يتصل بها من أسرار جميلة إدراكا حادا رائعا، والذوق يختار أصفى العبارات وأليقها بهذا الخيال الجميل.

وإذا ذكرنا الذوقي فإنما نعني الذوق المهذب (الذي صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة، وألهم الفصل بين الردئ والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبح)[١] وبذلك تتحقق هذه الصفة الفنية للأسلوب.

الجمال صفة سلبية وإيجابية يكون بخلو الأسلوب من التنافر والخشونة التي نؤذي الحس والذوق، ثم يجعله صدى صادقا لجمل الذوق والخيال.

▪ أولاً : الناحية السلبية

ويراد بالناحية السلبية أن تكون العبارة خالية من أسباب الاضطراب الصوتي والخشونة القاسية التي لا تنم عن عاطفة أو خيال، وبذلك تجد الكلمات، الجمل مطردة، متناسقة الحروف والكلمات، تقرؤها جهرة فتحس بالصوت متناسب الأنغام صافيا، ومما يعين في ذلك ما يلي:

(١) قدرة الكاتب - بذوقه المصفي- على إبعاد الكلمات المتنافرة الحروف أو العبارات المتنافرة الكلمات والجمل مهما يكن سبب التنافر[٢] وذلك نجده في نحو قول البحتري:

حلفت لها بالله يوم التفرق ** وبالوجد من قلبي بها المتعلق

والأصل من قلبي المتعلق بها، فلما فصل بين الموصف-قلبي-والصفة "المتعلق" بالضمير "بها" قبح ذلك.

١- الوساطة، ص٣٠

٢- راجع المثل السائر، ص٥٦ وما بعدها ص١١٠ وما يليها، والصناعتين.

ونجد تتابع الإضافات أفسد أسلوب البيت الثاني من قول كشاجم:

والزهر والقطر في رباها ** ما بين نظم وبين نثر

حدائق كف كل ريـــــح ** حل بها خيط كل قطر

وهذه الميمات التي اعتصمت بأوائل الكلمات، في البيت الآتي، جعلتــه ثقيل النغم.

مَلَكْتُ مِطال مولود مفدى ** مليح مانع منى مرادي

وفي النثر ما ورد لرجل يمدح كريما:

"يا مغبوقَ كأس الحمل يا مصبوح، ضاف عن نــداك اللــوح، وببابــك المفتوح نستريح، وتريح ذا التبريح، وترفه الطليح".

ومما ذكر مثالا للكلمات المتناسقة والعبارات المتناسبة السلسة ما ورد لامرأة في أخيها عمرو:

فأقسم يا عمرو لو نبهاك ** إذا نبها منك داء عضــالا

إذا نبها ليث عريســـــة ** مغيثا مفيدا نفوسا ومالا

(٢) سرعة الأذن في إدراك الرتابة الصوتية التي تبدو في ترديد نغمــة بعينها في النص الأدبي حتى تبعث الملل. وخير منــه التنويــع الــذي يحتفظ بمستوى الموسيقى لتلائم الموضوع.

وكثيرا ما يقع الكتاب والشعراء والخطباء في هذا الخطأ وهو نوح مــن المعاظلة اللفظية وقع فيه الشاعر حيث قال:

دان بعيد محب مبغض نهج ** أغر حلو ممر لين شرس

(٣) وبعد ذلك لا بد من ملاحظة النغمة العامة للأسلوب، والتيار الصوتي الذي يجب أن يطرد في غير قوة ولا ملل. وذلك متوقف على براءة العبارة من الكلمات الطويلة الكثيرة، وترديد الجمل المتشابهة والعبارات العادية إلى مدى بعيد.

▪ ثانيًا : الناحية الإيجابية

على أن ما سبق كان عملا سلبيا يراد به إعداد الأسلوب لقبول العنصر الإيجابي للجمال، وهو يمكن تسميته بالتناسب أو مطابقة اللفظ للمعني وقد رأيت فيما مضي أمثلة هذا القانون وبواعثه، حين اختلفت العبارات باختلاف الموضوعات والفنون.

ومع ذلك فنذكر شيئا من مظاهر هذا التناسب:

١- الملاءمة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني حتى تكون الأولي حكاية للثانية فتمثل حركتها، وأصواتها، وروعتها إذا كانت مشاهد طبيعية، وتصور الحماسة قوية صارمة، والنسيب عذبا رقيقا، والعتاب سهلا لطيفا كما مرّ.

٢- وذلك يستلزم استيحاء الكاتب شعور، الصادق، وخياله اليقظ ليمدا الذوق بالمقياس السديد الذي يستخدمه في تكوين العبارات الملائمة.

٣- وثمرة ذلك الظفر بهذه الهندسة الجميلة في صوغ وتأليف العبارات المتواصلة التي تكون صورة مطابقة لهذا النموذج المعنوي القائم بنفس الأديب. وهنا يعرض عليك الأسلوب جميع الخواص الفنية لشعور الكاتب وذوقه وخياله وقد مرت أمثلة لذلك.

الفصل الرابع

تداخل الصفات وتعادلها

صفات الأسلوب أشبه شيء بأنغام الموسيقي أو أدواتها، فكما أن هذه لا بد من تعاونها وتآلفها لتكوين نغمة تلائم الدور الملحن موضوعا وغاية، كذلك لا بد من تآزر هذه الصفات وتناسقها حتى يكون الأسلوب متزنا كاملا، يغذي العقل، والشعور، ويرضي نواحي النفس الإنسانية معبرا عنها أو مؤثرا فيها، لأن الأسلوب الواضح الذي تعوزه قوة العاطفة يكون بليدا فاترا، وإذا لم يظفر بالخيال الجميل كان جافا: وتجد ذلك عند من يعنون بالسهولة أكثر من سواها، وقع فيه أبو العتاهية، والبهاء زهير، والعباس بن الأحنف، والأسلوب القوي الذي فقد التفكير الواضح ثرثرة فارغة، والذي ألغى قيمة الذوق الجميل، والتناسب الدقيق، صعب جامد، وقد رأيت مثال ذلك عند ابن هانئ الأندلسي والحجاج الثقفي، أما الأسلوب الحريش على جمال الصور أو الصوت غير مبال هذه البساطة الواضحة فإنه يكون زهيدا، فإذا لم يعن بالعقيدة القوية والإرادة الصارمة عادوها ميتا، كما بدا ذلك في عصور الانحطاط الأدبي.

وأساس النجاح ألا يسمح الأديب لصفة بالحياة على فناء الأخرى بل لابد من توفيرها جميعا، وحفظ التوازن بينها بدرجة تجعل الأسلوب

قائما بواجبه خير قيام، وذلك لا يكلف الأديب أكثر من يقظة نفسه، وبراعة أسلوبية، وصدق في الأداء، فنجد روحه سارية في أسلوبه، تحيا فيه ولو أدركه الممات، وإذا كان لا بد من مثال يقرب لنا هذا المثال الذي للأسلوب فإنك واجده نثرا عند طه حسين في الأدب الجاهلي خاصة، وعند المتنبي – مثلاً- في الأبيات التي بدأت بها هذه الرسالة، وهأنذا أختمها بها.

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه * إذا اتسعت في الحلم طرقي المظالم

وأن ترد الماء الذي شطره دم * فتسقي إذا لم يسق من لم يزاحم

ومن عرف الأيام معرفتي بها * وبالناس روي رمحه غير راحم

فلا هو مرحوم إذا ظفروا به * ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

لئلا تظن أن الجمال يتراءى بالرقة فقط أو القوة وحدها، وإنما هو عبارة تحكي ما في النفس صادقة، فالجمال معناه الصدق، ومن هناك تستطيع أن تدعو الأساليب العلمية جميلة متي كانت صادقة التعبير عن عقول الكتاب، وعقائدهم، وما يشعرون به حين يكتبون.

أما بعد،

فلا أستطيع أن أترك القلم دون أن أحمد الله كفاء ما وفق،

وليتني أستطيع